

مراجعة لكتاب

الفلسفة السياسية في الذكاء الاصطناعي: مدخل

(The Political Philosophy of AI: An Introduction)

تأليف: مارك كوكليبرج**

شريف مجدي خليل***

يُمثل هذا الكتاب حلقة متصلة من حلقات البحث في مجال الذكاء الاصطناعي، وهو يعرض لأثر تقنيات الذكاء الاصطناعي وأنظمتها المُتعددة في مختلف مناحي الحياة. تهدف هذه الدراسة إلى التعريف بالكتاب المذكور آنفاً، وتبيان مردوده المعرفي، وكذلك إظهار أسلوب مؤلفه ومنهجيته في الكتابة.

يقع الكتاب في (186) صفحة، وهو يتألف من مُقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة، ومراجعة. وقد مهّد كوكليبرج في مُقدمة الكتاب لنظرته الفلسفية السياسية، مُوضّحاً كيف أنّ الذكاء الاصطناعي ليس أداة تقنية فحسب، بل قوّة تعيد تشكيل مفاهيم "الحرية" و"العدالة" و"الديمقراطية". ثمّ أعلن

* Coeckelbergh, Mark.(2022). The Political Philosophy of AI: An Introduction. Polity Press.

** فيلسوف بلجيكي مُتخصّص في فلسفة التقنية، وهو أستاذ في جامعة فيينا، ومعظم أعماله تتركز في مجال الذكاء الاصطناعي والأخلاق الرقمية والسلطة الخوارزمية.

*** باحث مصري مُتخصّص في قضايا الفلسفة، يحمل شهادة ماجستير في الفلسفة من الجامعة الأمريكية في القاهرة، 2024م، ويعمل مُترجماً وكاتباً مستقلاً في الشأن الفكري والثقافي. البريد الإلكتروني: sherifkhalii92@gmail.com

تم تسلّم المراجعة بتاريخ 13 / 3 / 2025م، وقُبلت للنشر بتاريخ 25 / 5 / 2025م.

للاقتباس: خليل، شريف مجدي (2026). "مراجعة لكتاب: الفلسفة السياسية في الذكاء الاصطناعي: مدخل The Political Philosophy of AI: An Introduction، تأليف: مارك كوكليبرج"، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة سابقاً)، مجلد 32،

كوكلبرج عن وجهته بالقول: إِنَّ التفكُّر في التقنية لا يليق أن يُجسَّس في أخلاقيات النية، بل لا بُدَّ أن يُخاض فيه بما يكشف مكامن السيطرة وخرائط النفوذ الخفي.

وقد حمل الفصل الأوَّل من الكتاب عنوان: "الحرية: تلاعب الذكاء الاصطناعي وعبودية الآلة". وفيه ناقش المؤلِّف كيف تعيد تقنيات الذكاء الاصطناعي تشكيل مفهوم "الحرية" باستخدام بعض الأدوات، مثل: التوجيه السلوكي، (nudging)، والمراقبة الحقيَّة. ثمَّ توقَّف المؤلِّف مَلياً عند مفارقة "العبد الطائع"؛ إذ يُجْتَزَل الإنسان إلى كائن مَقود لرغبات صيغت له من خارج وعيه. أمَّا الفصل الثاني الذي جاء بعنوان: "المساواة والعدالة: الانحياز وتمييز الذكاء الاصطناعي" فقد فكَّك فيه المؤلِّف آليات التمييز التي تنشأ عن الخوارزميات، مُحدِّراً من ظاهرة "التحيُّز المُتخفي"؛ إذ تُنتج أنظمة الذكاء الاصطناعي تفاوتاً بنيوياً تحت ستار الحساب الحيادي، وهو ما ينسف أُسس العدالة الاجتماعية.

وأما الفصل الثالث الموسوم بـ"الديمقراطية: غرف الصدى والشمولية الآليَّة" فقد أفردهُ المؤلِّف لبيان كيف تُقوِّض الأنظمة الخوارزمية شروط النقاش العام عن طريق تخصيص المحتوى، وعزل المُستخدم في "غرفة صدى" تحرمه من الاختلاف. ويرى المؤلِّف أن هذا الإجراء يُؤسِّس لنمط جديد من الشمولية الناعمة؛ إذ لا يُفرض فيه الرأي بالقوَّة، بل يكون بالتحكُّم في بيئة الوعي.

وفي الفصل الرابع الذي عنوانه: "السلطة: المراقبة والانضباط الذاتي بالبيانات"، تحدَّث المؤلِّف عن التحوُّلات في ممارسة السلطة، من المراقبة الكلاسيكية إلى الانضباط الذاتي المستمر، الناتج من استبطان الفرد لسلطة الخوارزميات، مُستشهداً بنقد فوكو لبيان كيف يتحوَّل الجسد الإنساني إلى موقع دائم للقياس والامتثال.

تلا ذلك الفصل الخامس المُعنون بـ"ماذا عن غير البشر؟ السياسة البيئية وما بعد الإنسان". وفيه تطرَّق المؤلِّف إلى مسألة "ما وراء الإنسان"، مُستعرضاً السياسات البيئية، وموقع غير البشر في

التفكير السياسي. ثمّ تساءل المؤلّف عن إمكانية تطوير نماذج شاملة للعدالة، تضمّ في ثناياها الكائنات الأخرى والعالم الطبيعي في ظلّ التقنية.

وقد ختم المؤلّف كتابه بالحديث عن التقنيات السياسية، ولملم فيه خيوط أطروحته، مؤكّداً أنّ الذكاء الاصطناعي ليس قدراً مفروضاً، وإنّما هو اختيار سياسي يعاد إنتاجه كلّ يوم. ثمّ طرح المؤلّف سؤالاً حاسماً مفاده: كيف يمكننا تشييد فضاء سياسي يُخضع الخوارزميات للمساءلة بدلاً من أن يُخضع الإنسان لها باسم التقدّم والكفاءة؟

وتالياً أبرز الحُجج التي استعرضها المؤلّف في الكتاب:

1. الحرية السلبية وتدخّلات الدولة الخوارزمية

انطلق كوكليبرج من التمييز الليبرالي القديم بين حرية سلبية لا يُكبّل فيها المرء بسلطان ظاهر وحرية إيجابية يصوغ فيها الإنسان إرادته بوعي كامل، لكنّه سرعان ما كشف أنّ هذا التمييز، وقد طبّق على عالم تحكّمه خوارزميات ليس لها وجه يُرى ولا نيّة تُسأل، لا يفني بفهم القيود الجديدة السارية في العصب الخفي للمجتمع.

فالذكاء الاصطناعي في كنف الدولة الحديثة -بحسب كوكليبرج- لا يُنزل سيفاً، ولا يُقيّد يداً، بل يَغزُل شباكه من معادلات وتنبؤات، فيعيد تعريف المسموح والممنوع من دون أن يُسمّي الأشياء بأسماؤها. ثمّ يمضي في صمت يُصنّف المُواطن، ويراقب حركته، ويقيس خطره، فيمنحه أو يمنعه. وهنا تنكشف مفارقة مفادها أنّ ما يُمارَس باسم الكفاءة والحياد ليس إلّا سلطة جديدة لا تُرى ولا تُسأل؛ ما يُنتج واقعاً سياسياً بلا إعلان.

وما يزيد الأمر التباساً وغموضاً أنّ الخضوع لهذه السلطة يأتي طوعاً، في لباس الراحة والذكاء والإدارة الرشيدة، فيُسلّم المرء لا مكرهاً، بل ظناً أنّه من اختار. وهكذا يتهاوى القول بأنّ الحرية هي غياب القسّر؛ فالقسّر الجديد لا يُرى ولا يُحسّ، لكنّه يُنفذ في القرار والرغبة والتصنيف.

ولهذا، فإن الحرية - كما يراها كوكلبرج - تطلب فهماً جديداً؛ فالدفاع عنها، إنما هو دفاع عن الحق في أن ندرك مَنْ يصوغ حياتنا، لا فقط في أن نتحرك بلا قيّد ظاهر.

2. الاستعباد الجديد: الرُّقُّ الآلي ومراقبة الأجساد

لا يكفي كوكلبرج بالقول: إن الذكاء الاصطناعي يهدم المفاهيم، بل يرى أنه قد غاص في صميم البنية الاجتماعية، بحيث يعيد نسج العلاقات بين البشر على منوال جديد من التبعية والانقياد، لا بالسوط بل ببرمجيات لا تُرى، ومعادلات لا تُناقش، وأرقام تُملي السلوك، وتعيد تشكيل الفعل. فالمراقبة - في ما يرى كوكلبرج - لم تُعدّ حبساً، بل أصبحت إحاطة دقيقة بالجسد والعقل، حتى غدا الإنسان موضوعاً للفحص، مرصوداً في حركته، ومحكوماً بمعطيائه.

وفي عالم الاقتصاد الرقمي، يُقيّد العامل بخوارزمية تُحْصي أنفاسه، وتعيد تشكيل جسده في صورة آله؛ وهو عندئذ لا يُسأل كيف فكّر، ولا يُجاطب بوصفه شخصاً. وتلك هي العبودية الجديدة التي حلّ فيها النظام محلّ السيّد؛ فلا تُطلب الطاعة العمياء، بل تُشكّل الطاعة الطوعية المُزيّنة بمُسمّيات الكفاءة والابتكار والمصلحة العامة.

وهنا يُتجزّل الإنسان من ذات فاعلة إلى نموذج إحصائي يُتوقّع منه أن يسلك، وإن تخلّف وُصف بالانحراف. وتغدو الحرية ذكرى، ويصير الجسد حقلاً للتنميط والتطويع، بحيث يعاد تكيفه لئلا يثير ريبة النظام، أو يُخلّ بترتيب الخوارزميات. ومن ثمّ يصبح الفرد سجيناً لذاته، ويعمل على حراسة سلوكه بنفسه.

والأدهى أن هذه السيطرة تفرض نفسها باسم الراحة، وتُستدعى باسم التحسين. وهنا يظهر وجه النظام الحقيقي؛ فهو لا يتحكّم في ما نفعله فحسب، بل فيمن نحن؛ لينتهي بنا الحال مُفرّغين من كلّ ما يجعلنا بشراً أحراراً. وذلك هو الرُّقُّ الآلي - بحسب كوكلبرج - الذي تُصادر فيه الذات الأخلاقية والذات السياسية.

3. الحرية الإيجابية والتلاعب بال رغبات

ليس المراد من الحرية عند كوكليج أن يُترك المرء وشأنه فحسب، بل أن يكون سيّد نفسه وأمرها، بحيث يُقرّر عن وعي، لا عن خضوع لنداء غريب تسلّل إلى النفس بغير علم منها. وهذه الحرية، التي سار فيها روسو وكانط من قبل، تغدو عنده مغلوّبة على أمرها في عصر أصبح فيه التوجيه مُغلّفًا باللين والتهذيب، وهو ما أطلق عليه كوكليج اسم (nudging).

والحقيقة أنه ليس ثمة قيد ولا قانون ولا زجر، بل عرض محسوب وسياق مُنسّق يدفعك إلى اختيارك "الخُرّ" كما يراد له، لا كما تريده. هذا هو الذكاء الاصطناعي، وقد تلبّس ثوب الناصح، لكنّه يندسّ في أعماق رغباتك ليُشكّل ما تُحبُّ، ويُرتّب ما ترى، ويُخفي ما يريد.

إنّ الخطر كلّ الخطر - كما يقول كوكليج - ليس في أن نُمَنع، بل في أن نُقاد من داخلنا، ونعيد اختراع أنفسنا على صورة لم نرسمها، لكنّها بُرِجت لنا. وهنا ينقلب التوجيه إلى خضوع، وتتبدّد الحرية في وهم بالغ الدقّة، لا نشعر معه أنّنا أُسرى، بل نظنُّ أنّنا ملوك.

والأخطر أنّ هذه البرمجة لا تقف عند السلوك الحاضر، بل تمتدُّ إلى الغد، فتكتب ما نظنّه رغبة، وهو صورة مُلَفَّقة صيغت من معطيات قديمة. ويصبح الإنسان، من حيث يدري أو لا يدري، آلة تمضي في طريق خُطّط لها، وتعيد إنتاج نفسها بحسب خارطة لم ترسمها.

وحين تُهندس الرغبات في الخفاء تتلاشى إمكانات النقاش، ويتحوّل الفعل السياسي إلى لعبة ظلال تديرها خوارزميات لا تُساءل، فتستحيل الحرية إلى عزلة؛ فالكلُّ في فقاعة، والكلُّ يظنُّ أنّه يرى، ولا أحد يرى حقيقةً.

ولهذا يدعوننا كوكليج أن نخلع ثوب الفرد العاقل المستقل، وأن نُنظر إلى أنفسنا بوصفنا أبناء سياقات تُشكّلنا، لا صنّاع قرارات فردية. فالحرية لا تقوم في عزلة، بل تحتاج إلى بني ومساءلة ومشاركة في تشكيل أدوات الاختيار نفسها.

والحرية اليوم - كما يراها كوكليبرج - ليست أن نضغط على زرٍّ، بل أن نعرف من الذي وضع هذا الزرَّ، وسبب وضعه، وكيف سيعيد تشكيلنا بعد الضغط عليه.

4. حُجَّة كوكليبرج في الرَّدِّ على التلاعب اللاواعي في عصر الاقتصاد السلوكي

لم يبدأ كوكليبرج حُجَّته من سطح الأشياء، وإنَّما استهلَّها من جذرها المطمور، حيث تشابك المعرفة بالسلطة، وتتسرَّب الرغبة من مسام الوعي؛ فلا يدري المرء أهو فاعل مختار أم مُنفذ مأخوذ. فالاقتصاد السلوكي، الذي استنطق ضعف الإنسان قبل أن يحترم قوَّته، صاغ منظومة جديدة في الحُكْم، لا تطلب من الناس عقلاً ونقاشاً بل عاطفةً واستجابةً؛ فصار التوجيه فناً خفياً، يُزيّن لك الطريق، ولا يُخبرك من رصفه، ويفتح لك الباب، ولا يُريك من أغلق سواه.

وقد حذّر كوكليبرج من الوقوع في هذا الانزلاق من النصيحة إلى الوصاية، ومن تحسين الاختيار إلى هندسة الإرادة. فالخوارزميات لا تُعرض فحسب، بل تُخفي وتُوجه، حتّى يصبح ما تراه كأنك أردته، وما لم تره كأنك لم تكن لتریده أصلاً. وهكذا، لا يعاد توجيه الفعل، بل يعاد بناء الرغبة نفسها. ثمَّ يقال لك: اختر.

وما أشدَّ خطر هذا الزَّيف حين يتخذ لباس العِلْم النافع، فيقال لك: إنك تقاد إلى مصلحتك، وإنَّ من وجهك يعرفك أكثر ممَّا تعرف نفسك. فيعرض الصالح كأنه رياضيات، ويُمحي الفرق بين الإنسان والكائن القابل للبرمجة. والكرامة، عندئذٍ، لا تكون إلا قشرة خارجية لآلة تحاكي الحرية، ولا تُمارسها.

ويرى كوكليبرج أن الخطأ في هذا السياق ليس عاراً بل ضرورة؛ لأنَّ من لا يُخطئ لا يتعلَّم، ومن لا يتردَّد لا يُفكِّر. أمَّا الخوارزميات فهي تسعى إلى عالمٍ منزوع الفوضى، خالٍ من العجب والدهشة والانحراف، عالمٍ محسوب على الورق وبلا روح. وحين يدار الإنسان كما يدار المصنع، تُختزل الحرية إلى آليَّة، وتصبح الديمقراطية ترتيباً للسُّلوك لا اشتباكاً في الفكر.

وإنَّ ما يباع على أساس أنَّه تحسُّن فردي - كأنَّ يحفظ المرء ماله، أو يُقلِّل سُكَّره - إنَّما هو أحياناً ثمرة لانسحاق روحه؛ إذ لم يُعدَّ يعرف لِمَ أراد، ولا مَن الذي دفعه إلى الإرادة. وبالرغم من ذلك كلُّه، فلا يُطلَب منك إلا أن ترضى؛ فالنظام يُطمئنك أنَّك بخير.

ولهذا لا يقف كوكليرج عند حدود الأخلاق التقنية، بل يصرخ في وجه البنية كلُّها، داعياً إلى إعادة تعريف الإنسان لا بوصفه مُستهلكاً، بل بصفته فاعلاً سياسياً أخلاقياً، قادراً على أن يُخطئ، ويختار، ويعترض، ويخرج من الطابور إذا شاء. فالخطر ليس في ما تأمر به الآلة، بل في صورة الإنسان التي تعيد تشكيلها فينا شيئاً فشيئاً، حتَّى لا يبقى منَّا إلا كائن مطيع بلا إدراك.

فالحرية في هذا الزمن لا تستعاد إلا حين تُدرك مَن يُهندس رغباتنا، ومَن يُعدُّ سلوكنا، ومَن يُخبرنا سرِّ ما نريد. فإنَّ عجزنا عن ذلك، فلن نكون أحراراً، وإنَّ ظننا أننا نختار.

5. الحرية السياسية: المشاركة والتمثيل في بيئة خوارزمية

يرى كوكليرج أنَّ الحرية السياسية لا تقوم فقط على إتاحة الكلام أو التصويت، وإنَّما تقوم على امتلاك الفرد والمجتمع القدرة الحقيقية على المشاركة في اتِّخاذ القرار، والتأثير في مصيرهما. غير أنَّ هذه القدرة تتعرَّض اليوم لإزاحة صامتة بفعل خوارزميات تعيد تشكيل الفضاء العام؛ فلا يعود ما يقال هو ما ينبغي أن يقال، ولا ما يُرى هو ما كان يراد أن يُرى.

ففي عالمٍ صيغَ على منطق التخصيص، لم يُعدَّ الوصول إلى الحقيقة متاحاً للجميع؛ ذلك أنَّ الكلام يُنقى، والأخبار تُغرَّب، وكلُّ ما لا يثير يُحذف، ويكتفى بالترويج لِمَا يطيل البقاء. عندئذٍ يهَمُّش الفكر في هدوء، وتُزرَع في الوعي صور مُعلَّبة تعيد إنتاج القناعات لآلة لا تعرف الشكَّ.

وقد حذَّر كوكليرج من خطر "غرف الصدى"؛ إذ لا يسمع المرء إلا صوته، ولا يرى إلا تأكيداً لِمَا سبق أن صدَّقه. وهذا ليس نتاج ظاهرة طبيعية، وإنَّما هو نتاج تصميم يُحوِّل الحوار إلى تماثل، ويُحيل النقاش إلى أصداء للصوت نفسه.

والتمثيل السياسي، الذي كان يوماً عقداً بين الحاكم والمحكوم، لا يسلم في هذا الزمن الخوارزمي من التبديد؛ إذ لم يعد السياسي يُخاطب جمهوراً واحداً، ولا أمة ذات لسان جامع، بل أخذ يتوجّه إلى شرائح مُفصّلة، تُحدّد مُقدّماً بحسب السنّ، والجنس، والموقع، والمزاج، والرغبة، والعُصاب.

وكلُّ مجموعة تُخاطب بلغة خاصة، وتُرسل إليها رسائل مُعدّة على مقاسها؛ فلا يسمع أحد ما يسمعه غيره، ولا يرى أحد ما يرى لسواه. وبهذا لا تعود هنالك ساحة عامة، ولا خطاب مُشترك، بل خوارزمية تُقّص الخطاب كما تُقّص الثياب، وتُخاط الأُمة كأنّها دُمى مُبعثرة، يُخاطب كلُّ منها بما يثيره لا بما يُوحّده.

وهكذا يُمحقى الجامع، وتنهار إمكانية الفهم المُشترك، ويُستبدل المُواطن بالمُستخدم، والحوار بالاستهداف، والرأي العام بالفقاعات الخوارزمية التي لا تُفضي إلى شيء سوى مزيد من الانغلاق.

وفي ظلّ هذا المشهد، تُختزل الديمقراطية إلى خوارزميات تُعرف ما "يُناسبك"، وتُحوّرك بما "تُحب"، وتُقصيك من الحوار حين ترى أنّك لم تُعد "مُربحاً".

ولهذا دعا كوكليبرج إلى إعادة تعريف التمثيل السياسي، لا بوصفه تفويضاً في صندوق، بل بصفته مشاركة فعلية في تشكيل الأدوات المُنتجة للوعي، والمُوجّهة للرغبة، والمُحدّدة للممكن. وقد اقترح كوكليبرج أن يخضع التصميم الخوارزمي نفسه للمساءلة، وأن يُفتح باب السيادة على مَنْ يُصمّم النظام، لا فقط على مَنْ يُطبّق نتائجه.

ثمّ حدّر كوكليبرج في ختام تحليله من أن تجاهل هذه الأسئلة قد يُفضي إلى ديمقراطية شكلية تُحكّم من باطنها ببرمجيات لا يُسألها أحد، وأن السيادة السياسية لن تبقى إلا كلمة منزوعة المعنى إذا ترك المجال الخوارزمي خارج نظر الشعب ومشاركته.

6. حرية التعبير وحدودها في ظلّ الذكاء الاصطناعي

في الأزمنة الماضية، كانت الكلمة تُصادَر بقانون، أو تُحظَر بمنشور، أو يُكَمَّم صاحبها في العلن. أمّا اليوم فقد تبدّل وجه القيد؛ إذ لم تُعدّ المراقبة تُمارَس في وضوح النهار، بل تُنفَّذ في صمت البرمجيات، وأخذ الكلام يُنشر ولا يصل، والرأي يقال ولا يُسمع؛ لأنّ خوارزمية ما قرّرت ألا يُكتب لذلك الظهور.

وقد نبّه كوكليبرج على هذا التحوّل الجذري؛ فحرية التعبير لم تُعدّ فقط بيد الدولة، وإنّما أصبحت تدار باليد الخفيّة للمنصّات؛ فلا رقيب يُعلن رفضه، بل شفرة خفيّة تُقرّر من يُرفع، ومن يُخفّض، ومن يُدفعن. وهكذا يُمارَس الحظر لا بمنع النشر، بل بمنع الظهور.

ويزداد الأمر مكرراً حين تُقدّم هذه الخوارزميات بوصفها أدوات "حيادية"، تبحث عمّا يُناسبك، وتحميك من الضارّ والمُضللّ. ولكن، من الذي قرّر ما هو ضارٌّ؟ ومن الذي صاغ خريطة النفع؟ ومن الذي فصلّ معايير الإقصاء؟ إنّ هذه الأسئلة تُطرح، فلا تُجاب؛ لأنّ النظام صامت لا يُسأل، ومُبرمجوه لا يُظهرون وجوههم.

وقد حدّر كوكليبرج من هذا الشكل الجديد للضبط؛ فهو لا يمنع فحسب، بل يعيد تشكيل الذوق، ويُفرغ الكلمة من بُعدها السياسي. فالخوارزمية تُعلي ما يُشبهك، وتُقصي ما لا ترتاح له، حتّى تصبح أنت سجّان رأيك، وأنت من يدير زنزانة وعيك.

وفي هذا المشهد، لم تُعدّ حرية التعبير أن تقول ما تشاء، بل أن يصل صوتك، وأن يُكتب لك الخروج من فقاعتك. فإن كان لكل فرد منصّته، وتقطّعت سبله لمنصّات الآخرين، فماذا بقي من الفضاء العام؟ وما معنى النقاش؟

ولهذا لا يكتفي كوكليبرج بالدعوة إلى "تنظيم المحتوى"، بل يطرح السؤال من أصله: هل يُمكن أن تظلّ الديمقراطية قائمة إذا تولّت الخوارزميات حراسة الكلام؟ وهل تبقى الحرية حرية إذا مُنحت لك بجرعة محسوبة، يُحددها من لا تعرفه، وتتغيّر بتغيّر معايير الربح أو المصلحة؟

وهنا تبلغ الحُجَّة مداها؛ إذ لا خلاص للكلمة إلا حين يُخَضَّع النظام الخوارزمي للمساءلة، ويُكشَف مَنْ صَمَّمه، وبأيِّ معيار اختار ما يقال، وما يُنسى، وما يُؤدِّي في مَهْدِه.

بعد هذا الاستعراض الموجز للكتاب، الذي يُمثِّل أنموذجاً للبحث العلمي الفلسفي الجادِّ الدقيق، نتطرق إلى تقويم الكتاب على النحو الآتي:

1. تحقيق الكتاب أهدافه المُعلَّنة

أمكن لكوكلبرج أن يصيب غرضه من تأليف هذا الكتاب؛ إذ إنَّه لم يكن جُهْداً في أخلاقيات التقنية فحسب، بل قراءة فلسفية سياسية تكشف خبايا الذكاء الاصطناعي، وما يفعله في الحرية والسلطة والديمقراطية من تحوُّلات صامتة. وهو لم يقف فيه فقط عند ظاهر الظاهرة، وإنما نفَّذ إلى بنيتها الحَفِيَّة، حين تصاغ العلاقات الاجتماعية من جديد في كَنَف خوارزميات لا تُساءل.

والمُلاحَظ على أسلوب المُؤلِّف في مُؤلِّفه أنَّه بيِّن، وحُجَّجه مُوثَّقة بأمثلةٍ معاصرة، وتحليل لا يلجأ إلى التعقيد إلا لتبيان الفكرة. وهو لا يدعو القارئ إلى الرضا، بل إلى يقظة فكرية تعيد للإنسان سلطته على ذاته. وبالرغم من عمق المُؤلِّف في طرحه، فإنَّه لم يُقَصِّص القارئ غير المُتخصِّص، بل بسَّط له الطريق إن صَبَرَ على بعض صعوباته.

وهكذا جاء الكتاب كما أراده صاحبه: مساهمة فلسفية مُؤَسَّسة في حقل فلسفة الذكاء الاصطناعي الناشئ.

2. قيمة الكتاب علمياً وأكاديمياً

يُمثِّل الكتاب إسهاماً رائداً في تقاطع الفلسفة السياسية وفلسفة التقنية، مُقدِّماً إطاراً نظرياً مُتكاملاً لفهم الأبعاد السياسية العميقة للذكاء الاصطناعي. وهو يُعالج بصدقٍ موضوعات مُتزايدة الأهمية، مثل: السلطة الرقمية، والتلاعب بالرغبات، والرقابة الخوارزمية، مُتجاوزاً موضوعات الأخلاقيات التقليدية نحو تحليل بنيوي عميق.

وقد ارتكز كوكلبرج في كتابه على منهج مُتعدّد التخصّصات، مزج فيه بين الفلسفة السياسية والنقد التقني وأدوات الاقتصاد السلوكي، مدعوماً بمراجع كلاسيكية وأخرى حديثة وأمثلة معاصرة تُعزّز حُججه.

ولا شكّ في أنّ بعض فصول الكتاب تتطلّب فهماً فلسفياً مُتقدّماً؛ ما قد يحدُّ من وصوله إلى القراء غير المُتخصّصين، إلّا أنّ ذلك يعكس جدّيته والتزامه الأكاديمي؛ ما يجعله مرجعاً مهمّاً للباحثين والمهتمين.

3. قيمة الكتاب التطبيقية والسياسية

لم يكتفِ الكتاب بتحليل الظاهرة فحسب، بل أخذ يُسائل الحكومات والمؤسسات عن مسؤوليتها في الشفافية والمساءلة، داعياً إلى تنظيم يحمي الحرية، ويصون كرامة الإنسان؛ إذ نادى المؤلّف بإعادة بناء الأطر السياسية والتشريعية لتنظيم الذكاء الاصطناعي، ليس فقط بوصفها أدوات ضبط، وإنّما بصفتها فضاءات للتمكين الديمقراطي والمساءلة الحقيقية. وقد أوصى المؤلّف بتبني آليات شفافة تُمكن المجتمعات من فهم الخوارزميات والمشاركة في صنع القرار، عادداً المساءلة شرطاً لاستعادة الثقة، وضماناً لمنع تحوّل التقنيات إلى أدوات استبدادٍ خفيّ. صحيح أنّ الطابع النظري لبعض فصول الكتاب قد يُربك المُمارسين، غير أنّ جوهره يضيء الطريق، ويُطالب بترجمة الفكر إلى فعل نافع في ميادين السياسة والحُكم.

4. مواطن الضعف

بالرغم ممّا في الكتاب من عمق فلسفي وصياغة أنيقة، فإنّ قارئه ربّما يشعر بأنّ شيئاً من حرارة الواقع مفقود؛ فالإشارات إلى مظاهر المراقبة وتوجيه السلوك، وإنّ كُثرت، ظلّت عند حدود الرسم النظري من دون أنّ تُستدعى الأمثلة الحيّة التي يتفوّق بها البرهان. ومن ثمّ، فقد غابت عن المتن وقائع كبرى، مثل: أنظمة التقييم الاجتماعي في الصين، وأدوات الفرز الخوارزمي في الهجرة والعمل، وكأنّ المؤلّف آثر التأمل على الملامسة، والتجريد على التعيين.

ومن الملاحظ أنَّ المؤلّف، وقد فرّق بين الخوارزمية والدولة، لم يفتح فصلاً واحداً لِمَنْ هم أصل البلاء وأداته؛ الشركات التقنية الكبرى العابرة للقوانين والسقوف، التي تُمارس سلطاناً خفياً يفوق ما تملكه أعتى الحكومات؛ فقد غابت أساء جوجل وأمازون وميتا وغيرها عن مواضع التحليل الجادّ، كما لو أنَّ الذكاء الاصطناعي وُلد في فراغ، أو نشأ بغير مُموّل ولا مُسير.

وفوق هذا كلّه، بدا الكتاب - بالرغم من دعواه الكونية- أكثر ميلاً إلى الرؤية بعين الغرب؛ فكلُّ المفاهيم المركزية - من الحرية إلى التمثيل - قد سُرحت من مدارج الفكر الليبرالي أو الفكر الحدائثي الأوروبي، وغابت عن الكتاب الرؤى القادمة من الجنوب العالمي؛ من الفكر ما بعد الكولونيالي، أو من تأمّلات الفلاسفة العرب والآسيويين والأفارقة. ولهذا بدا الكتاب - في نظر بعض نقّاده - عالمياً في الادّعاء، محلياً في البناء، يتحدّث عن آلة تحكّم الأرض بلغة لم تُفكّر إلا في نصفها.

والحقُّ أنَّ هذه السّقطات لا تُقلّل من قيمة الكتاب في مجمله، وإنّما تدلُّ على أنّ دَرْب كوكليبرج بحاجة إلى مَنْ يتصدّى له بالتوسيع والتكميل، لا بالهدم والإعراض.

5. مدى ملاءمة الكتاب لجمهوره المُستهدَف

يُخاطب الكتاب جمهوراً مُتنوعاً من الباحثين في الفلسفة السياسية وفلسفة التقنية، والمُمارسين المهتمين بالأبعاد السياسية والأخلاقية. وهو يُوفّر إطاراً متيناً للتحليل الحديث بأسلوبه الأكاديمي وعمقه النظري.

وبالرغم من صعوبة بعض مفاهيمه على القارئ العام، فإنّه يظلُّ مُنظماً بوضوح؛ ما يجعله مناسباً لِمَنْ يمتلك خلفية فلسفية متوسّطة.

والقارئ للكتاب يلاحظ التوجُّه الفكري للمؤلَّف بوضوح؛ ما قد يُؤثِّر في الاستقبال، لكنَّه -في الوقت نفسه- يُحفِّز إلى نقاش نقدي عميق عن الذكاء الاصطناعي وسياساته المُتَشعِّبة.

قراءات مُكمِّلة لموضوع الكتاب أو مؤسِّسة له:

1. في نقد التقنية والسلطة الرقمية

- (Shoshana Zuboff – The Age of Surveillance Capitalism)
من الكتب المرجعية التي تُفكِّك كيفية استثمار البيانات في تشكيل السلوك، وتحويل البشر إلى موارد خام لرأس المال الخوارزمي.
- (Cathy O’Neil – Weapons of Math Destruction)
كتاب يُمثِّل نقداً صارماً للخوارزميات التي تُنتج الظلم الاجتماعي بذريعة الحياد، وتُخفي تحيزات خطيرة تحت قناع المعادلات الرياضية.

2. في الفلسفة السياسية للتقنية

- (Langdon Winner – The Whale and the Reactor)
كتاب يطرح سؤالاً جوهرياً مفاده: هل تُعدُّ التكنولوجيا مُحايِدة حقاً أم أنَّ لها بُنى سياسية؟ والكتاب يُمثِّل تمهيداً لفهم السياسي العميق للتقنيات.
- (Andrew Feenberg – Technosystem: The Social Life of Reason)
كتاب يُناقش كيف تُشكِّل التكنولوجيا العقل الاجتماعي والسياسي، ويدعو إلى ديمقراطية تقنية لا تفصل عن العدالة الاجتماعية.

3. في الاقتصاد السلوكي وتأثيره في السياسات

- (Richard Thaler & Cass Sunstein – Nudge)
كتاب قد يكون المرجع المؤسِّس لمفهوم "التوجيه السلوكي" الذي ينتقده كوكيلبرج؛ إذ يبيِّن كيف تُهندَس البيئات لانتِخاذ قرارات أفضل من دون إكراه.
- (Evgeny Morozov – To Save Everything, Click Here)
كتاب يتضمَّن نقداً لاذعاً للتقنيات التي تُقدِّم نفسها على أساس أنَّها تُمثِّل حلاً شاملاً لكلِّ المشكلات، وهو يكشف أو هام "الحوسبة الكلِّية" للسياسة والحياة.

4. في البُعد الوجودي والفلسفي العميق للتقنية

- (Martin Heidegger – The Question Concerning Technology)
كتاب يُقدِّم تفصيلاً دقيقاً لفهم التقنية لا بوصفها أداة، بل بوصفها انكشافاً يُغيِّر طريقة وجود الإنسان نفسه في هذا العالم.
- (Byung-Chul Han – Psychopolitics: Neoliberalism and New Technologies of Power)
كتاب يتضمَّن تحليلاً دقيقاً لكيفية تحوُّل السلطة إلى شيء نُمارسه على أنفسنا تحت وهم الحرية والكفاءة الذاتية.